من ثمرات الهجرة

جهـــاد شهيد

للأستاذ سعيد الأفغاني

كلما أظل الكون عام جديد التفت المسلمون إلى الماضي البعيد يستوحونه العبرة ويتلقون منه الدرس . وكم في صدر الاسلام من عظات ، وكم فيه من دروس يتقضى الزمان وهي لا تنفد وإنها لتجود على كل ناظر فيها بما يحفز الهمة ويوقظ الوجدان ويملأ النفس حيـة والقلب خشوعاً . وما أحرى الأقطار العربية عامة أن تتأمل في تاريخها المجيـد وخاصة ما حف بحادث الهجرة الـكبرى من أذى واضطهاد ، ظفر من بعدها المؤمنون الصابرون ، لتستشعر القوة والاقدام وهي تكافح من طغيان المخلين وكيدهم ما يفقد معه الصبر وتعيا الحيلة وتكل القوى . ومتى رأوا ما فعلت العقيدة والاخلاص في نفوس أسلافهم ، الذين كانوا أضعف منهم اليوم وأفقر وأقل عدداً ، مضوا في جهادهم مستعينين بالله ، وليس بينهم وبين النصر إلا أن يفعلوا ما فعل الأولون

سمع دعوة الاسلام فانشرح لها صدره ، وطرب قلبه ، ودخل في الدين الحق فأشرب حبه والإخلاص له والاستماتة من أجله ، وشمل أهل بيته ما شمله من رحمة الله فاغتبطوا ذكوراً وإناثاً بما ساق إليهم ربهم من خير

وكان نعيمه من الدنيا أن يرى رسول الله أو يجلس معـه أو يستمع إليه ، وهو يجـد في ذلك لذة تغمر وجوده كله فيذهل عن الدنيا وما فيها من متاع ولهو ليغرق في غيبوبة روحية سامية ، يسمع الموعظة فيلتهمها التهاماً ثم لا يلبث أن يندفع عاملاً بها بحماسة جامحة تثير عاطفة الخير في كل قلب . وكان في سيرته مثلاً كاملاً للمسلم الحق الذي آمن بالله فعبده مجتهداً حق العبادة ، وأحب الخلق جميعاً فنحهم من نفسه الرحمة والخير والحب والإحسان

ولقد رقق من نفسه ما كان بلغه من سيرة الرسول في مكة ، وما تحمل هو وأصحابه من أذى المشركين واضطهادهم في سبيل الله ، حين دعاهم إلى الخير فصدوا عنه مستكبرين ، وعرض عليهم الإسلام فأسموه في دينه وإلهه ما يكره ، ثم زادت وقاحتهم فرجموه وشتموه وأخرجوه وأجاعوه ؛ وهو مع أصحابه الأخيار صابر ساكت يدعو لهم وينتظر فرج ربه

وكان أنس بن النضر على عقيدة في الله راسخة وإيمـان صليب ، ملك عليه الإسلام لبـه وتمكن حب الله وحب رسوله من قلبـه ، وهو مع كونه من خيار الأنصار قولاً وعملاً ومع فرط محبة النبي له ، شديد الحسرة على أنه لم يكن ممن أوذي في الله بمكة ، وأنه فاته بذلك شرف عظيم استأثر به المهاجرون الأولون ؛ ولم يكن يعزيه إلا أنه يتلبث حتى تكون فرصة سعيدة يخرج فيها عن حق الله في ماله وأهله ودمه

وكانت النفرة الأولى إلى بدر ، حيث تصاول الخير والشر كفاحاً ، وحيث وقف المؤمنون صفاً واحداً سلاحهم التقوى وإيمان بالله لا يتزعزع ، واثقين بأنه لابد ناصرهم مع قلتهم وضعفهم على الشرك وأهله الذين خرجوا بطرين مستطيلين ، عادين على الله وعلى رسوله والمسلمين . ولقد صدق المسلمون يومئذ الحملة وأخلصوا النية ، وأرخصوا في سبيل الله دماءهم وأموالهم فنصرهم الله النصر المؤزر ، ورجعوا إلى المدينة مغتبطين بمـا أذل الله من الباطل ورفع من الحق ، وما مكّن لهم من صناديد قريش حتى أوسعوهم قتلاً وأسراً

وكان صاحبنا أنس قد عاقته العوائق عن شهود بدر ، فلما بلغه ما كان ثمة من جهاد واستماتة ، وما حل بالقوم من رحمة الله ورضوانه ، حزن حزناً ما حزنه أحد قط ، وكلمـا سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ما خص الله به أهل بدر من الفضل والخير ، تقطع قلبه حسرات على ما أخطأه من فرصة كان يترقبها بفارغ الصبر منذ عرف الإسلام ، لذلك أراد أن يأخذ على نفسه عهداً يُشهد عليه الله والنبي والمسلمين ، حتى لا يصيبه في المستقبل ما أصابه في الماضي ؛ فهرع إلى رسول الله مُنصرفَـه من بدر وإن سيماه لتفصح عن ندم شديد وعزيمة صادقة وحماسة متأججة ، عرف ذلك في وجهه كل من رآه ، فلما وقف على النبي في أصحابه قال له :

« يا رسول الله ! غبت عن أول قتال قاتلت به المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينّ ما أصنع »

* * *

لبث أنس ينتظر مواتاة الفرص حتى بلغ أهل المدينة ما جمع لهم أبو سفيان من الخيل والرجـل ، وما طابت به نفوس المشركين من ربحهم في العير لينفق على حرب النبي وأصحابه ، وكان ذلك

خمسين ألف دينار . وما كانت قريش ولا حلفاؤها لتسمح بهذا وهم التجار الحراص على المال[1] ، لولا ما ملأ صدورهم من الغيظ والحنق والكره للمسلمين على ما فعلوا بهم يوم بدر

شاور الرسول أصحابه فيما يصنع فكان الرأى أن يتحصنوا بالمدينة ، حتى إذا أتوهم قاتلوهم عنها . وكان من قول عبد الله بن أبى : « يارسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا إلىعدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يارسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا »

وأبى لهم أن يجمعوا على هذا الرأى وفيهم من يتلهف شوقاً إلى حرب المشركين « فقد كان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر لما سمعوا النبي يخبر بفضل من شهدها وعظيم ثوابه ، فودوا غزوة ينالون بها مثل ما ناله البدريون وإن استشهدوا » ؛ فلم يعجبهم ما قال المجربون من الرأى الهادئ الخبير ، وتغلبت عواطفهم الجياشة ، واشتد بهم الظمأ إلى الشهادة حتى قالت طائفة منهم :

« إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا »

وقال حمزة : « والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة »

وقال النعمان بن مالك : « يارسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها » الخ

ووافق هؤلاء مشيخة من المهاجرين والأنصار فكانت غزوة أحد ، وكان أول الناس إسراعاً إليها وأشدهم فرحاً بها أنس وأخته ، وخرج إليها كثير من الأحداث والنساء ، فأبلوا فيها البلاء المحمود ، دفاعاً عن دينهم وذياداً عن نبيهم وشوقاً إلى ما عند الله

* * *

شب القتال ؛ وكان المشركون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون ، ونصر الله المسلمين أول الأمر ، حتى إذا ترك الرماة مواقفهم التى أمرهم الرسول بلزومها كان ما هو معلوم للجميع ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً وكثر فيهم القتل وانهزم فريق وثبت فريق وأشيع أن رسول الله قد قتل وأسقط فى أيديهم . هنالك كان الامتحان الأعظم للبطولة والإخلاص فمحص الله للشهادة الأخيار ، وذاد القروم البواسل عن الرسول ذياد المستميت ، وعمد النساء إلى السلاح يأخذنه من المنهزمين فقاتلن به حتى كانت ضروب الشجاعة والبسالة التى أتاها النساء فقط ، صفحة مجيدة تتقطع دون الظفر بها رقاب الفحول المذاويد الأبطال ؛ وكان من ثبت من الصحابة نفراً ضئيلاً وقع عليهم نبى الرسول — وقوع الصاعقة فخاروا فى أمرهم بعد أن ترك أكثرهم القتال ووهنت نفوسهم وألقوا بأيديهم ؛ إذ ذاك ، يدركهم الله بهذا البطل المجاهد المغوار ، أنس ابن النضر يسألهم فيم جلوسهم والحرب قائمة ؟ فيقولون : قتل رسول الله ! فيزدادحمية واستبسالاً ويهتز من قرعه إلى قدمه وتتجسد فيه معانى الجهاد السامية فتتألق عيناه ويلتمع وجهه ويكاد دمه ينفر من عروقه وترتسم عليه سمات الصلابة والعزيمة والاندفاع ويفتر ثغره عن هذه الكلمات الملهبات تذكرهم بالواجب الذى ذهلوا عنه ، وتحفزهم إلى الشهادة ، وتدفع أجبن الناس إلى اقتحام الغمرات —

« فما تصنعون بالحياة بعده ؟ ! قوموا فموتوا على ما مات عليه ، أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء » ثم قال : « اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) » انقضت على سامعيه لحظة كانوا منها فى مثل لجج النور من كلماته ، فألهبهم ودفعهم إلى الموت دفعاً ؛ ثم انطلق نحو جموع المشركين فلقى فى طريقه سعد بن معاذ فقال له : « ياسعد ؛ الجنة ! ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد » ورمى بنفسه وسط الجموع الحانقة الظافرة ، ضارباً وطاعناً ، فأشرعت إليه الرماح وأصلتت عليه السيوف وسالت منه الدماء على جوانبه ، وهو لا يحس لتلك — وخزاً ولا يشعر لهذه بألم ، ولا ينفك متقضاً على الأعداء مفتحاً صفوفهم ، يوسعهم تقتيلاً وإثخاناً ، غير آبه للرماح تتناوشه ، ولا للسهام تنفذ فيه ، ولا للسيوف تقطّع منه ، وإنه مع هذا كله لا يرى أنه بذل فى الله طائلاً ، وكلما ازداد الدم منه انصباباً زاد على أعدائه كراً وإقداماً حتى أكرم الله هذه الروح الزكية فسالت على قصد القنا وظُبي السيوف فاستأثر سبحانه بها ، وأنالها ما تمنت من الشهادة لتنعم بلقائه وجواره فى عليين

(١) أنظر شرح ذلك وافياً فى كتابنا (أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام) ص ١١٦ وما بعدها

ولقـد أحى بكلماته تلك أنوف المهاجرين والأنصار ، فمشوا على أثره وكروا ثانية على العدو ، واجتهدوا فى القتال ؛ إلا أن أحداً ما بلغ مبلغ أنس رحمه الله ورضى عنه ، حتى إن سعد ابن معاذ — على ما أبلى فى العدو يومئذ — ليحدث عنـه بعد الحرب فيقول : « ما استطعت يا رسول الله ما صنع »

* * *

انقضت المعركة حافلة بضروب البطولة ، وطفق المسلمون يتحرون قتلاهم لمواراتهم التراب ؛ وإنهم لفى شأنهم إذ وقفوا على جثة لم يعرفوا صاحبها لأن السيوف والرماح لم تبق على شىء من ملامحه قط . يا للهول ويا للبسالة ! بضع وثمانون بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، يتلقاها رجل واحد فقط ، ثم هو بعد ذلك لم يشف صدور أعدائه الحنقين عليه لما ملأ قلوبهم حرداً وغيظا من كثرة ما فعّل فيهم ، لم يُبرّد أكبادهم كلُّ ما نالوا منه ولم يُذهب غيظ قلوبهم قتله ، بل شوهوا الجثة ومثلوا بها ، لقد بلغ من المسلمين هـذا المنظر أمداً بعيداً ونفضهم نفضاً من شدة التأثر ، وعظمت رغبتهم فى معرفة صاحب الجثة ، ولبثوا مدة لا يهتدون إليه ، حتى تقدمت امرأة مجاهدة تحدّرت منها العبرات الحرار ، وهي تحدق فى أنامل الشهيد ثم قالت : « هو أخى أنس بن النضر ، عرفته ببنانه ! »

* * *

رجع المجاهدون الأبرار ، الذين اصطفاهم الله رسلاً إلى الإنسانية المعذبة يفيضون فيها الرحمة ، ويشيعون العدل والإحسان ، رجعوا إلى المدينة يحفهم رضوان الله وتتنزل عليهم رحمته ؛ وقد خلفوا فى أحد سبعين بطلاً استماتوا بإخلاص ليجعلوا كلمة الله هى العليا ، فنعمت أرواحهم بالشهادة . ولئن كان من بقى منهم على قيد الحياة قد أبلى البلاء الحسن وبذل طاقته ومجهوده ، فان الحسرة لتذيب كبده على أنه لم يحظ بما حظى به إخوانه من شرف الشهادة ، ولم يخفف من حسرتهم إلا أملهم فى أن يكرمهم الله بها فيما ينتظرهم من معارك

لكن الله سبحانه رضى عن هؤلاء وأولئك ، وأنزل فيهم قرآناً ما يزال الناس يتلونه والعبرات تجرى غزاراً من مآقيهم ؛ وما زال هذا الصوت الإلهى المقدس يهيب بالمسلمين والمستضعفين مدوياً فى الآفاق :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون فى سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ونحمد الله على أن هـذا الفيض المقدس من شرف الدفاع ، ما زالت أمداده متصلة باستمرار ، وما زال الشهداء يتوافدون على ميادين الجهاد ؛ وما برحت هـذه الطائفة المختارة من المسلمين تتكالب عليها الأعداء من كل جانب ، وما انفكت عرضة لتألبهم وهمجيتهم وضراوتهم والله يمتحن الخلف بما امتحن به السلف ، ويخص من شاء منهم بكرامته . فى كل بلد إسلامى ميدان جهاد وشهداء دفاع ، وفى كل بقعة عربية عدد مستبيح وقافلة تستشهد ولن نزال إلى قيام الساعة نستشهد ، ولن نزال إلى قيام الساعة نتأسى بتلك العصبة الطاهرة من شهداء أحد ومجاهديها ، ولا تفتأ منا طوائف تترى على آثار من سلف من أولينا كلما خلت مواضع فى الصف احتلها فوج ؛ ولم ينس النـاس بعد تلك الأرواح البريئة التى صعدت إلى بارئها فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهى تكافح أحفاد الصليبيين من بريطان وفرنسيس وطليان وإن هـذه القوافل لتستمر فى تلبية نداء ربها بتهافتها على الشهادة ، كلما ردّدت المحاريب ما أنزل الله فى أبطال أحد :

« من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

فيا أيها الشهداء المخلصون الأبرار من لدن أحد وبدر إلى معارك فلسطين وساحات المغرب الأقصى اليوم !

ويا أيتها الحلقة النورانية التي انتظم فيها أنس بن النضر وعبد الرحمن الغافقى ... حتى عمر المختار وعز الدين القسام وفرحان السعدى ومن يخلف هؤلاء وأولئك فى مشارق الأرض ومغاربها !

هنيئاً لكم الكرامة فى دار الخلد ، فقد غضبتم للحق وحميتم الحرمة وحفظتم البيضة ، وجردتم سيوفكم تذودون لصوص الأعراض والأموال والأديان من ذئاب البشر الجائعة الضارية ، وتدافعون عن الشرف والنبل والخير والمثل السامية ، حتى أسلمتم أرواحكم وقدمتم على ربكم بدمائكم تشكون وحشية الطامعين وفظائع المحتلين

يا أيها الشهداء المجاهدون : لا حرم الله دنيانا من أمثالكم فأنتم منار الهدى ومصابيح الظلام . وعليكم رحمة الله ورضوانه

(دمشق) سعيد الافغانى